

الأبعاد التربوية للأمثال القرآنية

Educational dimensions of Quranic proverbs

سميرقاز^{1*}، أ.د. بلخير حدبي²¹ جامعة أحمد دراية أدرار كلية العلوم الإسلامية، Samirregaz01@gmail.com² جامعة أحمد دراية أدرار كلية العلوم الإسلامية، hodbibb@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/10/04 تاريخ القبول: 2023/02/19 تاريخ النشر: 2023/03/30

ملخص:

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الأساليب التربوية التي يستخدمها الدعاة في إرشاد الناس وتبيين الحقائق التي بها يهتدون. ومن هذه الأساليب، أسلوب ضرب الأمثال الذي يعد من أنجع الوسائل التربوية المساعدة على تزكية النفس بالعواطف الإيمانية، وتربية العقل على التفكير الصحيح والقياس السليم، ولحاجة المجتمع لمثل هذه الأساليب التربوية، جاءت هذه الدراسة لتطرح مقارنة تربوية بغية الوقوف على حقيقة الأمثال في القرآن الكريم، والتعرف على المقاصد التربوية للأمثال القرآنية، وتبيان دورها في تكريس المبادئ التربوية.

الكلمات المفتاحية: الأمثال؛ القرآن الكريم؛ التربية الإسلامية.

Abstract:

The Holy Quran abounds with many educational methods which preachers have used to guide people and clarify the facts leading to the right path. Proverbs is one of the most efficient methods helping in refining the self with the emotions of faith. It also educates the mind on correct thinking and proper measurement. Due to the importance of such methods to the society, this research aims to enlighten the reality of proverbs in the Quran, to find out its educational goals and explain its role in perpetuating educational principles.

Keywords : Proverbs; the Holy Quran; Islamic education

1. المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على رسوله ﷺ ليهدي الناس إلى عبادة الله وحده، ويخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام؛ فأصبحوا بفضل هذا الكتاب العظيم - بعد فترة وجيزة - خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110)

هذا التغير العظيم حصل بواسطة هذا الكتاب المعجز الذي يحمل بين دفتيه أساليب تربوية فريدة حيث خاطب الله تعالى عباده فيه على قدر مداركهم، وبالوسائل التي تحرك مشاعرهم، فوظف مجموعة من الأساليب التربوية، كالقدوة الحسنة والترغيب والترهيب والثواب والعقاب، وإثارة العاطفة والتربية بالتعليم والوعظ والإرشاد، وكذا أسلوب التربية بضرب الأمثال الذي هو موضوع هذه الدراسة.

فهذا الأسلوب - وغيره - استطاع القرآن الكريم أن يغرس في نفوس المسلمين التربية الإسلامية الفاضلة ويُنشئ المجتمع الإسلامي الراشد. فقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم كثيراً من الأمثال وأورد العديد من التشبيهات، وهو ما يؤكد أهمية هذا الأسلوب في التربية والتعليم. قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 43)

تبرز أهمية هذه الدراسة من خلال النقاط الآتية:

- حاجة الأمة الدائمة إلى الاستلham المستمر من القرآن الكريم، لاسيما في هذا العصر، فأضحى من الضروري الاهتمام بمثل هذه الأساليب.
- تعتبر الأمثال القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم البليغة في تربية الناس؛ فهي تهدي النفوس وتقنع العقول وتؤثر في الوجدان.
- يُعدّ هذا الموضوع تربوي ودعوي بامتياز، ذلك أنه يعرض لنا أحد الأساليب التربوية الناجعة في القرآن الكريم.

يمكن صياغة إشكالية البحث على النحو الآتي:

- ما هي الدلالات التي تضمنتها الأمثال القرآنية؟ ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:
ما مفهوم الأمثال القرآنية؟ وما هي أهميتها؟ ثم ما هي الأبعاد التربوية والمرامي الدعوية الناتجة عن ضرب الأمثال في القرآن الكريم؟ وكيف نستطيع توظيفها في المجالين التربوي والدعوي؟

كما تسعى هذه الورقة البحثية إلى تحقيق جملة من الأهداف من أهمها:

- الوقوف على ماهية الأمثال القرآنية، وبيان بعض مواردها في القرآن الكريم.
- طرح رؤية تربوية لأسلوب القرآن الكريم في عرض الأمثال.
- بيان مدى تأثير الأمثال القرآنية في نفوس المخاطبين، على المستوى العقلي والوجداني والسلوكي.

أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة، فقد تمّ اعتماد المنهج الوصفي بالدرجة الأولى، وذلك من خلال توصيف جملة من الأمثال القرآنية. ثم الاستعانة بالمنهج التحليلي لمناقشة وتحليل هذه الأمثال، مع التوثيق العلمي، حسب قواعد البحث العلمي المعروفة.

هذا وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة تقسيمها على النحو التالي:

المقدمة: وقد ذكرت فيها أهمية الدراسة والإشكالية وأهداف الدراسة والمنهج المتبع.

مفهوم المثل القرآني وبيان أهميته:

الأبعاد التربوية العقدية لضرب الأمثال في القرآن الكريم

الأبعاد التربوية الخلقية لضرب الأمثال في القرآن الكريم

الخاتمة: وقد تطرقت فيها لأهم النتائج والتوصيات المتوصل إليها في هذه الدراسة.

2. مفهوم المثل القرآني وبيان أهميته:

1-2 مفهوم المثل لغة: قال ابن فارس: " (مَثَلَ) المِيمُ وَالثَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُنَاطَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَيْ نَظِيرُهُ، وَالْمِثْلُ وَالْمِثَالُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ، وَرَبَّمَا قَالُوا مِثْلٌ كَشَبِيهِ،... وَالْمِثْلُ: الْمِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهُ وَشَبَهُ، وَالْمِثْلُ الْمَضْرُوبُ مَاخُذٌ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ يَذْكُرُ مُوَرِّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى".² وأما ابن منظور صاحب اللسان، فإنه يرى أن: "مثل كلمة تسوية يُقال هذا مثله، كما يُقال شبيهه بمعنى".³

2.2 مفهوم المثل اصطلاحاً: ذهب أكثر المفسرين القدامى ممن اشتغل بمعاني مفردات القرآن، كأبي زكريا الفراء⁴ وأبي عبيدة معمر بن المثنى⁵ إلى تفسير "المثل" بالتشبيه؛ وأضاف ابن قتيبة الدينوري معاني أخرى للمثل، حيث قال: "...المثل: العبرة، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف: 56)، أي عبرة لمن بعدهم، والمثل: الصورة والصفة، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (محمد: 15). أي صفة الجنة.⁶ ووقف أبو جعفر الطبري على معانٍ أخرى للمثل غير الشبه⁷، ففسره بالعبرة والعظة،⁸ وبالأية والحجة،⁹ وبالصفة.¹⁰ وذهب أبو عبيد بن سلام إلى أن: "الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في النطق، بكناية غير تصريح".¹¹ وبعد هذا العرض لأهم الأقوال والآراء حول مفهوم المثل عند أوائل المفسرين وجُمَاع الأمثال، يتضح أنَّ المثل كان قد ارتبط بالتشبيه ارتباطاً وثيقاً.

² ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تج: عبد السلام هارون، (د.ط.)، دار الفكر، 1399هـ-1979م، (296/5).

³ ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر، 1414هـ، (610/11).

⁴ ينظر: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تج: أحمد يوسف النجاشي، وآخرون، ط1، مصر، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د.ت.)، (15/1).

⁵ أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تج: محمد فؤاد سزكين، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1381هـ، (323/1).

⁶ الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تج: إبراهيم شمس الدين، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، (د.ط.)، (د.ت.)، ص270.

⁷ ينظر: الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تج: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، 1420هـ-2000م، (403/1).

⁸ المرجع نفسه، (624/21).

⁹ المرجع نفسه، (629/21).

¹⁰ المرجع نفسه، (166/22).

¹¹ البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تج: إحسان عباس، ط1، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1971م، ص3.

3.2 مفهوم المثل القرآني:

لا يمكن حمل المثل القرآني دائماً على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، كما أنه ليس كله أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضر بها بموردها، فالمثل القرآني لا يشترط أن يكون له مورد مما ألفه الناس،¹² بل إن الحكمة الربانية هي الأصل في إيراد تلك الأمثال القرآنية وإظهارها بهذه الصورة الرائعة التي نراها.

يقول ابن القيم: المثل القرآني هو "تشبيه شيء بشيء في حكمه أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر".¹³

2.4 أهمية ضرب الأمثال في القرآن الكريم:

إن الله ﷻ الذي خلق الإنسان يعلم أن هذا الأخير يملك استعدادات فكرية محدودة، وقدرات عقلية قاصرة، لا تمكنه من فهم وإدراك كثير من الأمور المجردة، كالغيبيات والمعقولات والأشياء الوجدانية، فاستخدم وسيلة الأمثال كأسلوب لتقريب المعاني الغامضة وتصوير ما هو معقول، ليصير محسوساً ملموساً في متناول إدراك كل إنسان.¹⁴

وعن دور الأمثال ومنزلتها يقول الماوردي: "وللأمثال من الكلام موقع في الأسماع وتأثير في القلوب لا يكادُ الكلامُ المرسلُ يبلغُ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها... فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رُسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة".¹⁵

إن الممثل له أو المشبه قد يكون معنى أو ذاتا يجملها المخاطب، ويتعذر إحضارها إليه لمشاهدتها، وقد يكون في التعريف بها مباشرة بذكر أوصافها إطالةً قد تؤدي إلى تشتيت ذهن المخاطب، أو التباس الأمر عليه، فيحسن عند ذلك ضرب المثل له لتقريب المعاني الوجدانية أو الأفكار أو الذوات المحسوسة الغائبة إلى ذهن المخاطب بمثال محسوس له إحساساً مادياً أو إحساساً وجدانياً.¹⁶

¹² . ينظر: مناع ابن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1421هـ-2000م، ص292.

¹³ . ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الأمثال في القرآن، تج: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، ط1، طنطا، مصر، مكتبة الصحابة، 1406هـ-1986م، ص9.

¹⁴ . ينظر: حمزاوي يزيد، المدلولات التربوية في الأمثال القرآنية، (رسالة ماجستير)، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، كلية

العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص50.

¹⁵ . الماوردي، أبو الحسن علي ابن محمد، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، (ب. ط)، 1986م، ص286-287.

¹⁶ . ينظر: الجربوع، عبد الله بن عبد الرحمن، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عمادة البحث العلمي بالجامعة

الإسلامية، ط1، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-2003م، (1/156).

فالقرآن الكريم من خلال ضربه للأمثال يشحن عقول المخاطبين، ويدفعهم إلى التفكير والتأمل والقياس؛ ويقصد بالقياس باعتباره عملية عقلية، التقدير: يقال قاس الشيء إذا قدره، ويستعمل أيضاً في التشبيه، أي في تشبيه الشيء بالشيء، يقال هذا قياس ذاك، إذا كان بينهما تشابه. والقياس اللغوي رد الشيء إلى نظيره.¹⁷

3. الأبعاد التربوية العقدية لضرب الأمثال في القرآن الكريم:

إن أعظم أمثال القرآن أهمية وأرفعها شأنًا ومنزلة، هي الأمثال الإيمانية التي تبين أركان الإيمان، وأسس الدين، وتعرف بالله رب العالمين وبحقه على عباده، وغير ذلك من المطالب الإيمانية والعقدية.

فلقد أولت الأمثال القرآنية في مجملها أهمية قصوى وبالغة للإيمان بالغيب والتوحيد، لكونه الأساس الذي تُبنى عليه الأهداف الفرعية الأخرى، ولأن الهدف الرئيس للأمثال القرآنية هو تحقيق التوحيد الخالص والإيمان الصادق، فقد جاءت معظم تلك الأمثال في هذا الباب تأكيداً لأهمية هذا الهدف، "ذلك أن أغلب الأمثال القرآنية القياسية تهدف إلى تحقيق التوحيد..."¹⁸، وتؤكد ألوهية الله تعالى ووحدانيته، وترشد إلى عظيم قدرته في خلقه وجميل صنعته لموجوداته. وذلك بأسلوب قرآني فريد، سيقت فيه للدلالة على صدق ما أخبرت به الآيات عن طريق الدليل والحجة والبرهان، بالإضافة إلى ما تعطيه من قوة وتأثير في الوجدان.

3-1 مثل نور الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ * اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: 35)

بدأ الله جلَّ شأنه في بداية هذه الآية الكريمة بالثناء على نفسه بما هو أهله، فبين لعباده أنه هو الذي استنارت بنوره السماوات والأرض ومن فيهن. فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: "الله هادي مَنْ في السماوات والأرض، فهُم بنوره إلى الحق يهتدون، ويهداه من حيرة الضلالة يعتصمون".¹⁹

¹⁷ . ينظر: الجربوع، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، (94/1).

¹⁸ . المرجع السابق، (16-15/1).

¹⁹ . الطبري، جامع البيان في تأويل أي القرآن، (295/17).

لقد ضرب الله تعالى المثل لنور الوحي المعنوي بمصباح أرضي من صنع الناس، ذي نور صاف من أية شائبة، وهذا النور يتلألأ كالكوكب الدرّي.²⁰ وحتى يتسنى للعقل البشري المحدود أن يستوعب هذا النور السنيّ، ويُدرّك طبيعته العظيمة قرّب إليه الله عزّ وجل ذلك المعنى في مثل محسوس، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، أي مثّل هداة في قلب المؤمن، والمشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل.²¹

يقول ابن جزّي في تفسيره: "وإنما شبّه النور الإلهي بالمشكاة، وإن كان نور الله أعظم، لأن ذلك غاية ما يُدرّكه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه".²² فحين يضرب الله الأمثال للأمور المعنوية، يُقدّم لها بأمر مادي يتفق عليه جميع الناس، كي يُجلي المعنوي أو الغيبي إلى أذهانهم، فتقترب الصورة ويتضح الأمر.

لقد بين سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه هو الهادي لأهل السماوات والأرض، فكل خير ونور وبصيرة وهدى فهو منه وحده سبحانه. قال ابن كثير: "هذا مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، ضرب له مثل بالمصباح في الزجاج التي كأنها كوكب درّي، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط".²³ فهذا المثل قد ضرب لبيان حقيقتين هامتين بهما تحصل هداية العباد:

الحقيقة الأولى: إن الهداية والتوفيق للإيمان يكون بفعل الله، حيث يشرح صدر عبده بعد أن يقذف سبحانه نور الإيمان في قلبه، والمشبّه في المثل بنور المصباح. هذا النور هو أساس الهداية وبدايتها، ولا سبيل إليه إلا بالله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (النور: 40)

الحقيقة الثانية: إن سبب الهداية يكون من العبد، عندما يُنيب إلى ربه، ويستجيب

لما نزل من الوحي.²⁴

²⁰ المبداني، عبد الرحمن حسن حنكة، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، ط2، دمشق، دار القلم، 1412هـ-1992م، ص126.

²¹ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (58/6).

²² ابن جزّي الكلي، أبو القاسم، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، نج: عبد الهادي الخالدي، ط1، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي

الأرقم، 1416هـ، (70/2).

²³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (192/1).

²⁴ ينظر: الجربوع، الأمثال القياسية المضروبة للإيمان بالله، (329/2)، بتصرف.

إن قلب المؤمن، يعمل - بالفطرة - بالهدى الرباني قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم، ازداد نوراً على نور، وهداية على هداية، لأن الله تعالى هو فاطر الموجودات كلها، وقد جعل العقل نوراً هادياً، يدرك به عظمة المخلوقات، ويهتدي بواسطته إلى خالقها جلّ شأنه، فإذا اكتملت الهداية بالوحي الإلهي، واستنار المؤمن بإرشادات الرسول صلى الله عليه، اتضحت الرؤية للحق، بالنظر وإعمال العقل والفكر.

فهذا المثل من الأمثال التشبيهية، التي توضح المراد عن طريق القياس التمثيلي، وبهذا المثل شبه أمر معقول هو: نور العلم والإيمان القائم في قلوب المؤمنين، بأمر محسوس هو: نور المصباح الذي في مشكاة، الوارد وصفه في المثل. والمشبّه به والمشبّه كلاهما عبارة عن هيئة مركبة.²⁵ يقول عبد الرحمن الميداني: "وهذا من قبيل تمثيل مدرك فكري بمدرك بالحسّ الظاهر".²⁶ ويضيف ابن القيم بما فتح الله تعالى عليه، فيقول: "وَهَذَا النُّورُ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِذْ هُوَ مُعْطِيهِ لِعَبْدِهِ وَوَاهِبُهُ إِيَّاهُ، وَيُضَافُ إِلَى الْعَبْدِ إِذْ هُوَ مَحَلُّهُ وَقَابِلُهُ، فَيُضَافُ إِلَى الْفَاعِلِ وَالْقَابِلِ، وَلِهَذَا النُّورُ فَاعِلٌ وَقَابِلٌ، وَمَحَلٌّ وَحَامِلٌ، وَمَادَّةٌ، وَقَدْ تَضَمَّنَتْ الْآيَةُ ذِكْرَ هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ.

فَالْفَاعِلُ: هُوَ اللَّهُ تَعَالَى مُفِيضُ الْأَنْوَارِ الْهَادِي لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَالْقَابِلُ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، وَالْمَحَلُّ قَلْبُهُ، وَالْحَامِلُ: هِمَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَالْمَادَّةُ: قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ".²⁷ ثم يواصل فيقول: "وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية، فيه من الأسرار والمعاني، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما يناله من نوره، ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم".²⁸

وقد احتوى المثل على جملة من الفوائد التربوية العقيدية نجمها في النقاط التالية:

- إثبات النور اسماً من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته.
- دلالة المثل على أن الهداية والإيمان والنور من الله تعالى، وأن سببه من الإنسان.
- دلّ المثل على أن للإيمان والعلم نوراً حقيقياً في قلوب المؤمنين.
- إن مثل النور ميزان توزن به المناهج الحادثة في تعيين طريق تحصيل العلوم في المطالب الدينية.

²⁵ . ينظر: الجربوع، الأمثال القياسية المضروبة للإيمان بالله، (343/2).

²⁶ . ينظر: الميداني، أمثال القرآن، ص 47.

²⁷ . ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المظلة والجهمية، تج: زائد بن أحمد النشيري، ط 1، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، 1431 هـ، (24/1).

²⁸ . المرجع السابق.

- الأنوار الإلهية الهادية إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم ترشد العباد إلى ما يحقق لهم الخير والسعادة في الدارين، ويكونوا - بفضل الله تعالى - من الصفوة المختارة الباقية على منهج الحق إلى يوم القيامة.

- لقد استثار هذا المثل القرآني عقل المخاطب ووجدانه في آن واحد، ما يدل على إعجاز النظم القرآني.

3. 2 مثل من ساء بالكفر حاله وماله:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ (النور: 39-40)

من مميّزات الأسلوب القرآني أنه يعقد الموازنات أو المقارنات بين المتقابلات، أي يذكر المعنى وضده، والشئ ونقيضه، فإذا بشر حذر، وإذا وعد توعد، وإذا ذكر العسر أرفده بذكر اليسر، وإذا ذكر النور أعقبه بذكر الظلمة، وهذا حتى يتبين الخير وأهله ومصيرهم، والشر وأهله وعاقبتهم.²⁹ (وبضدها تتبين الأشياء)، فبعد أن ضرب الله تعالى في الآية السابقة - من سورة النور- مثلاً لنوره جلّ شأنه في قلوب عباده المؤمنين، يعرض السياق مجالاً آخر، مجالاً مظلماً لا نور فيه، مخيفاً لا أمن فيه، ضائعاً لا خير فيه، ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار، فيضرب مثلين للفئة الكافرة يصور من خلالهما فساد أعمالها وخيبة آمالها وسوء مآلها يوم القيامة³⁰، وهذه عاقبة وخيمة لا يرتضيها عاقل لنفسه. يقول ابن كثير في تفسيره: "هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَوْعِي الْكُفَّارِ: فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ: فَهُوَ لِلْكَفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمْ، الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ، وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيَعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَن بُعْدٍ كَأَنَّهُ بَحْرٌ طَامٌ"³¹.

²⁹ ينظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، ط1، دمشق، دار الفكر، 1422هـ، (1756/2)، بتصرف.

³⁰ ينظر، أنور الباز، التفسير التربوي للقرآن الكريم، ط1، مصر، دار النشر للجامعات، 2007م، (446/2).

³¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (70/6).

ففي المثل الأول يشبه الله تعالى أعمال الكفار الصالحة في حياتهم الدنيا، كصلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء، وإقامة المشاريع الخيرية، برجل يكون في فلاة فسيحة حيث لا ماء ولا زاد، فيجد في طلب الماء لشدة ظمئه، فإذا به يرى سراباً - كاذباً - بعيداً يظنه ماءً، فيركض نحوه حتى إذا وصل إليه لم يجده شيئاً.

"فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا، فَإِذَا وَافَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسَبَهُ عَلَيْهِ، وَنُوقِشَ عَلَى أَفْعَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِلَ، إِمَّا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (الفرقان: 23)"³².

فقد أشار ابن كثير إلى المغزى والعبرة من ضرب هذا المثل، وهو أن ميزان قبول الأعمال عند الله تعالى يتوقف على أمرين:
الأول: الإخلاص وعدم الشرك بالله، وعدم الرياء.

الثاني: موافقة الأعمال لما جاء به الشرع.

يقول سيد قطب: "وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة، فهذا السائر وراء السراب، الظام الذي يتوقع الشراب، الغافل عما ينتظره هناك... يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال: (ووجد الله عنده) الله الذي كفر به وجده، وخاصمه وعاداه، وجده هناك ينتظره، ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه، وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار؟"³³.

وأما النوع الثاني من الكفار: فهم المقلدون لأئمة الكفر، الصمّ البكم الذين لا يعقلون، فمثّلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كُذِّبَتْ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾: قَالَ قَتَادَةُ: وَهُوَ الْعَمِيقُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كُذِّبَتْ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعُضِّهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: 40)، أي: لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَاهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ، فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، وَلَا هُوَ يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ.³⁴

³² . تفسير القرآن العظيم، (71/6).

³³ . سيد قطب، في ظلال القرآن، ط32، دار الشروق، 1423هـ-2003م، ص2521.

³⁴ . ينظر: ابن كثير، مرجع سابق، (71/6).

ما يستفاد من المثلين المضروبين:

- يستفاد من هذين المثلين القرآنيين: أن شرع الله تعالى ومنهاجه هو النور الصحيح المرشد لخيري الدنيا والآخرة، وأما التشريع المخالف لدين الله تعالى، فهو كالسراب الكاذب، والظلمات المتراكمة. وهذا في مجال العقيدة والإيمان. أما في المجال الدنيوي فقد يكون الكافر مُبدعاً فيها، مُتفوقاً في إدراك العلوم، مُبتكراً لوسائل التقدم والمدنية، ولكنه عن الآخرة والنجاة فيها غافل جاهل.
 - السبب في إحباط أعمال الكافرين: أنها لا تقوم على أصل صحيح وهو الإيمان بالله تعالى، والله لا يقبل عملاً إلا من مؤمن بالله، موحد له توحيداً كاملاً.
 - الصورة التي رسمها هذا المثل القرآني تهزُّ القلب هزاً وتبعث الرهبة في النفس.
- والخلاصة: أن المثلين المذكورين في الآيتين هما تحذير وتنبيه للكفار، فمن عقل كلام الله وتدبر فيه، صح اعتقاده، فصلح له عمله، ومن ظل مصراً على كفره، معرضاً عن التأمل في آيات ربه، لقي جزاءً عسيراً، وعقاباً أليماً، ولم ينفعه أي عمل صالح، ينجّيه من عذاب الله يوم القيامة.³⁵

3.3 تربية المؤمنين على تحمل الأزمات وتثبيتهم في المحن والابتلاءات:

قال الله سبحانه: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝ (البقرة: 214)، وقال جل وعلا: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ (العنكبوت: 2-3)﴾

لقد كانت الثلة الأولى من المؤمنين في بدء الدعوة قلةً مستضعفين، خاصةً حديثي العهد بالإيمان، وقد تعرضوا حينها لشتى أنواع الأذى كي يعودوا عن دينهم الذي آمنوا به، فكان من حكمة الله ولطفه بعباده المستضعفين أن يقدم لهم طاقةً يستمدون منها القوة وزاداً يعينهم على ترسيخ عقيدتهم. فجاءت الأمثال القرآنية لتخبر المؤمنين أن الابتلاء هو من سنن الله في عباده - وليس بمقصود عليهم وحدهم -، فلطالما أودى المؤمنون السابقون المتمسكون بعقيدتهم وسلطت عليهم شتى ألوان العذاب، وحلّت بهم المحن والفتن، وما زادهم ذلك إلا تثبيتاً وإيماناً فوق إيمانهم.

³⁵. ينظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر، 1418هـ، (260/18)، بتصرف.

فقد حثَّ الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر وتحمل المشاق، فإنهم متعرضون لشتى ألوان البلاء والمحن، كما تعرض الأنبياء السابقون لمختلف أنواع الشدائد والطغيان، فصبروا وثبتوا على الحق حتى تحقق لهم الفرج والنصر، لأن الفوز برضوان الله تعالى، يتطلب الصبر والمصابرة، وتحمل الشدائد، واجتياز محنة الفتنة والابتلاء بثبات، ودون تسخط ولا تبرم ولا انحراف عن صراط الله سبحانه.

فهذا مثل صادق للعبارة والعظة بما تعرض له الأنبياء السابقون وأتباعهم المؤمنون، فقد جاء هذا المثل ليُخبر الفئة المؤمنة التي آمنت في صدر الإسلام، أنها لم تُبتلى مثلما ابتلي من كان قبلهم، فقد مسَّتْهم الشدة والخوف والآلام والأسقام، وأزعجوا إزعاجاً شديداً، حتى اضطر الألم والقسوة إلى أن يقول الرسول³⁶ - وهو أعلم الناس بالله تعالى وأوثق بنصره -: متى نصر الله؟ فجاءهم الردُّ: ألا إن نصر الله قريب التحقّق والحصول، وكما قال تعالى في سورة يوسف - عليه السلام -: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَجَاءَ مِنْ شَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ١١٠﴾ (يوسف: 110).

إنَّ في هذا كلّ عبء لمن يأتي بعدهم، ويظنون أن الإسلام عبادة فقط، دون أن يَمروا بشيء من الاختبار، أو يتعرضوا لنوع من الإيذاء، والمصائب والشدائد، جهلاً منهم بسنة الله في ابتلاء أهل الهداية، من أجل التعرف على مدى قدرتهم في الثبات على الحق والإيمان، وما تتطلبه الدعوة إلى الله من عناء ومقاساة، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥﴾ (البقرة: 155)³⁷.

³⁶. نقل القرطبي: عن الكلبي: أَنَّ هَذَا فِي كُلِّ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أُمَّتِهِ وَأُجْهِدَ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ: مَتَى نَصُرَ اللَّهُ؟ وَرَوَى عَنِ الضَّحَّاكِ قَوْلَهُ: يَغْنِي، مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ نَزُولُ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ينظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تج:

أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ - 1964م، (35/3).

³⁷. ينظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (249/2).

فهذا المثل ضربه الله تعالى في حق كل من كفر بآيات الله وتنكب عن اتباع سبيل المؤمنين، واتبع ما لا يعقل ولا يسمع، فجاء هذا المثل القرآني، وقد تضمن تحذيراً وتقريعاً وذمماً لصفة التقليد في أمور العقيدة بغير هدى من الله تعالى. فالخطاب عام يشمل جميع المكلفين ممن عصى وأعرض وتكبر، فهو لكل من ألغى عقله وأغلق فكره ورفض التأمل والنظر فيما أنزله الله تعالى من الآيات والبيّنات.

وفي هذا المثل توبيخ لهم، وتهكم بهم، إذ نزلهم منزلة الهائم التي لا همّ لها إلا الأكل والشرب، وهي منقادة مسخرة ذليلة، صاغرة، يسوقها راعها إلى حيث يشاء، فقال في آخر الآية: (فهم لا يعقلون): فقد ألغوا عقولهم، وحبسهم التقليد عن التفكير فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ.⁴⁰

ما يستفاد من هذا المثل القرآني:

- ذم صفة التقليد التي تؤدي بصاحبها إلى تعطيل عقله وعدم النظر في الآيات والبيّنات الدالة على كمال الشريعة وعظم هذا الدين.
 - المقلد لغيره الذي لا ينظر في الأدلة والبراهين التي من حوله ينزل منزلة الهائم التي لا تدرك ما يقال لها ولا تفقه شيئاً إلا سماع صوت راعها.
- وكخلاصة لهذا المبحث يمكن القول: إن الأمثال القرآنية، هي دلائل عقلية للإيمان بالله جلّ وعلا، حيث يتخذ الإيمان من العقل وسيلةً للعروج إليه، وأساساً لمبادئه وأصوله، ويساير فطرة العقل ورغبته في التأمل واستكشاف العلل والأسباب، "فحينما دعا الإسلام الناس إلى الإيمان بالله، وجههم إلى بلوغه عن طريق أعمال العقل، واستخدام أدوات المعرفة التي لديه في النظر والتفكير، في دلائل قدرة الله وعلمه وحكمته وسائر صفاته الدالة على وجوده، وأرشدتهم إلى أن هذه الدلائل مبنوثة في السماء والأرض وفي أنفسهم".⁴¹

⁴⁰ محمد بكر إسماعيل، الأمثال القرآنية، ص 101.

⁴¹ الميداني، عبد الرحمن حسن حينكة، الحضارة الإسلامية، أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها وملحات من تأثيرها في سائر الأمم، ط 1، دمشق، دار القلم، 1418 هـ - 1998 م، ص 329.

4. المرامي التربوية الخلقية والسلوكية في الأمثال القرآنية:

لم تحظ دعوة - بعد دعوة التوحيد- بمثل ما حظيت به تلك الدعوة البناءة للمجتمع الإسلامي، أفرادا وجماعات، دعوة قامت على تقويم السلوك وترشيده، -بعد تصحيح المعتقد- فدعت إلى الفضائل، وحذرت من الرذائل، وقد كان للأمثال القرآنية الدور الفعال في تكريس القيم التربوية السلوكية في أوساط المجتمع المسلم.

وقد ضرب الله تعالى مثلين قرآنيين في بيان: النفقة متى تكون نافعة زاكية لصاحبها ومتى لا تكون كذلك.

1.4 الترغيب في الإنفاق والحث على التبرع في سبيل الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ۝﴾ (البقرة: 261)

إنَّ الدعوة إلى البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله، تُثير في المسلم دوافع الخير، والإحساس بما يفرضه الواجب عليه حيال مجتمعه وأمته، فطرق الخير كثيرة، وتبقى أن تلتقي معها النفوس الخيرة - التي تُقبلُ على البذل والإنفاق -، التي تريد نفع الناس والخير للأمة، لا تبتغي من وراء ذلك إلا مرضاة الله تعالى والفوز بالجنة.

إنه الإنفاق الخالص لوجه الله تعالى، الذي لا يُحدد بِكَمٍّ، ولا تُوضع له مقاييس، إلا ما يضعه المؤمن لنفسه، وما يتفق مع رغبته المحبة للخير، المتعاونة على الحق، فالمشاريع التي تخدم المجتمع، إنما تحتاج إلى مال سائل يساعدها على النهوض والكمال، وحبس المال إنما هو تعطيل لتلك المرافق أن تقوم بدورها،⁴² لذلك جعل الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم لوناً من ألوان الهداية الإلهية تغري النفوس على الخير، وتحثها على البرِّ، فحضَّت على الإنفاق، ونددت بالشرِّ، وصورت الطيب والخبيث، وغير ذلك مما أشادت به أو أشارت إليه.⁴³

فهذا المثل يُجسِّدُ المعنى ويقرِّبه إلى أفهام المخاطبين بمثال منتزع من الطبيعة يراه الناس ويلمسونه بأعينهم. فقد صورت لنا الآية الكريمة مثل المنفق ماله في سبيل الله بمن بَذَرَ بذراً، فأنبَت كلَّ حبة سبع سنابل، ثم كان في كلِّ سنبله مائة حبة، كذلك المنفق

⁴². ينظر: الطهطاوي، علي أحمد عبد العال، عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، ص221، وما بعدها بتصرف.

⁴³. ينظر: ابن الشريف محمود، الأمثال في القرآن، ص8.

يُضاعف الله له الثواب إلى أضعاف مضاعفة، وهذا بحسب حال المنفق ونيته ودرجة إيمانه وإخلاصه، كما يتفاوت أجرُ المنفق بحسب نفع الإنفاق ومصارفه.⁴⁴

إن الأمة بحاجة إلى من يُنفق ماله في بناء المدارس والمصحات وحفر الآبار والتكفل بالأرامل واليتامى ومساعدة الفقراء، فرغب الله تعالى عباده في الإنفاق في سبيله ابتغاء مرضاته، ووعدهم بالبركة والنماء والتطهير ومضاعفة الأجور، فضرب لأجل ذلك أروع الأمثلة التي تستثير المرء وتحفزه على العطاء، كما أنها تُربي النفوس على السخاء والبذل في سبيل الله، وكل ما يتصل بتنمية نوازع الخير في الإنسان، وقمع كل بادرة شرٍ

ما يستفاد من ضرب هذا المثل القرآني:

- الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته سبحانه، من أعظم القربات؛ ذلك أن النفوس قد جُبِلت على حُب المال والسعي وراء تحصيله وادخاره، فكان بذله في سبيل الخير ونفع الأمة مضاعفَ الأجر عند الله جلّ جلاله.

- كما أن هذا المثل القرآني فيه ما يدل على فضيلة الجهاد بالمال ابتغاء مرضاة الله، وأن الثواب يُضاعف للمنفق في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى إلى سبعمائة ضعف. قال ابن كثير: "وهذا المثلُ أبلغُ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الحسنة يُنمها الله لأصحابها كما ينمي الزرع لمن يبذره في الأرض الطيبة".⁴⁵

- فيه دلالة على جزيل فضل الله وإحسانه على خلقه، كما فيه ترغيب في الإنفاق والمسابقة في سُبُل الخيرات والمبادرة إلى الصالحات.

4.2 التحذير من إبطال الأعمال بالمن والأذى أو بالرياء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ (البقرة: 264)

وفي سياق آخر يحذّر الله تعالى عباده من تضييع ثمرات أعمالهم ويرهمهم من إحباط أجورهم بالمن والأذى، فيضرب الله لنا أروع الأمثلة التي تجعل النفس البشرية تتأثر به، وتدفع بالعقل إلى التفكير والتدبر.

⁴⁴. ينظر: ابن قيّم الجوزية، الأمثال في القرآن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م، ص253، وما بعدها.

⁴⁵. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (691/1).

لقد مثل الله عز وجل المتصدق الذي يمن ويؤدي الناس بصدقته، بالذي ينفق ماله رياء الناس، لا يبتغي بذلك وجه الله، أو بالكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، يريد من وراء صدقته سمعة أو فائدة دنيوية تعود عليه، فالله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لا تخالطه شائبة من رياء أو سمعة، ذلك أن من شروط قبول الأعمال أن تكون خالصة لله وحده، وموافقة لما جاء به الرسول ﷺ. فالآية تتضمن التنفير والترهيب من هاتين الخصلتين التي يمجتها الله ورسوله والناس أجمعون.

ثم تشبه الآية عمل ذلك المتصدق المرئي بتراب على حجر أُمس نزل عليه وابلٌ غزيرٌ، فأزال ذلك التراب العالق عليه، وبقي الحجر أُمساً نقياً لا غبار عليه؛ ووجه الشبه بين الصورتين أنَّ المرئي ينظر إليه الناس على أن له أعمالاً ترفعه يوم القيامة، كما يرى التراب على الصخر الأُمس، فإذا كان يوم القيامة وكُشفت السرائر، تلاشت كل هذه الأعمال، كما يمحو المطر الشديد أثر التراب من الحجر الأُمس. فالثواب والأجر لا يكونان إلا للمتقين المخلصين لله، المبتغيين وجه الله سبحانه.⁴⁶

يقول سيد قطب: "كذلك القلب الذي أنفق ماله رياء الناس فلم يُثمر خيراً ولم يعقب مثوبة".⁴⁷

ثم يواصل القرآن الكريم من خلال هذه السورة الكريمة ضرب الأمثلة الزاجرة والرادعة عن بذل المال من أجل الرياء والسمعة، قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ (البقرة: 266) فهذا مثل آخر ضربه الله تعالى يصف حال من يُنفق ماله، لا يريد بذلك وجه الله تعالى، وإنما ليرائي الناس به، فيذهب الله ماله منه في الحياة الدنيا، ولا يأجره فيه يوم القيامة، بل يجد الحسرة والندامة. قال الحسن البصري: "هذا مثل، قلَّ والله من يعقله من الناس: شيخٌ كبيرٌ، ضعف جسمه، وكثر صبيانُه، أفقر ما كان إلى جنته، فجاءها إعصارٌ فأحرقها، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله، إذا انقطعت عنه الدنيا".⁴⁸

⁴⁶. ينظر: طاحون، أحمد بن محمد، أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، ص75.

⁴⁷ - سيد قطب، في ظلال القرآن، (309/1).

⁴⁸. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ-1991م، (142/1).

لقد ورد في سورة البقرة مثلين لصنفين من الناس مختلفين:

فأما الأول: فهم قومٌ يُنفقون أموالهم ابتغاء وجه الرحمن، وطلب رضوانه، **وأما الثاني:** فأناسٌ ينفقون على عكس الأول في سبيل الشيطان والهوى. يقول صاحب التفسير المنير: "في الآيتين مثالان واضحا يوجبان التأمل والتفكير والمقارنة، ولا شك أن كل مؤمن عاقل يختار الموقف الأول، فيجعل نفقته خالصة لوجه الله، لأنها هي التي تُفیده وتحقق له الثواب يوم القيامة، ولا يغتر العاقل بمظاهر الدنيا الفانية... لأن كلام الناس في كل حالة مؤذ ومضر، فإن رأى بعمله ذمُّوه وحسدوه ومقتوه...، وإن مدحوه فلا قيمة ولا غناء لمدحهم..."⁴⁹.

ما يستفاد من ضرب هذا المثل:

- إن المثل الأول يُثير في الإنسان الرغبة في فعل الخيرات والمبادرة إلى بذل الصدقات والمشاركة في مختلف الواجبات الاجتماعية، وفي المقابل نلاحظ أن المثل الثاني يُنفّر من السلوكات السيئة التي نهى عنها الشرع ونفر منها وهذا حتى يجتنبها المؤمن.
- "إن المقابلة بين حالي الفريقين تبعث على التفكير والتأمل، وتدفع أهل العقل والحكمة إلى اختيار الأفضل والرغبة فيما يكون سبباً في السلامة والفوز والفلاح، ويحقق البركة في الدنيا والسعادة في الآخرة. كما يبعث التأمل على النفور من خصال الشرّ والخوف من الكسب الحرام الذي يؤدي بالإنسان إلى الهلاك والعذاب. فالمقابلة بين الأمرين المتضادين تزيد المعنى وضوحاً، وتبين المزايا، وترغب في الحسن، وتنفر من القبيح في الخصال والأعمال والأقوال التي تُزري بالإنسان وتجعله محلّ سخط الله وغضبه"⁵⁰.

⁴⁹. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر، 1418هـ، (55/3).

⁵⁰. طاحون، أحمد، أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، ص92.

3.4 النهي عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَلَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَها فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ (البقرة: 275).

بعدما تحدثت الآيات السابقة عن الأبرار المؤدين للصدقات، جاءت هذه الآيات لتتحدث عن الوجه الآخر المقابل للصدقة، عن الوجه الكالـح الطالـح، عن أكـلة الربـا وأموال الناس بالباطل، وكيف أن الربا تحمل أصحابها والمتعاملين بها على الجشع والشح وأكل القذارة، وعلى الأثرة والفردية، واسترداد المال ومعه زيادة مقطوعة من جهد المدين، فشتان بين الربا والصدقة - التي هي عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل⁵¹، فيخبر تعالى عن كيفية خروجهم من قبورهم وقيامهم إلى أرض المحشر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالَ صَرَعِهِ وَتَخَبُّطِ الشَّيْطَانِ لَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكَلِ الرِّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخْنَقُ⁵².

فلقد أبانت هذه الآية الكريمة عن حال الذين يأخذون الربا، ويستحلونه حباً في المال وعملاً بالأهواء، فمثّلهم القرآن الكريم في "الاضطراب والقلق وتعذيب الضمير والوجدان والانهماك في الأعمال والدنيا كمثـل المـصروعين الذين تتخبطهم الشياطين، وتمسّهم الجنّ، وتضرّهم وتصرعهم، وهم في الآخرة- من وقت قيامهم من قبورهم إلى البعث والنشور- أشدّ تخبطاً واضطراباً وتناقلاً في حركاتهم، بسبب ثقل المال الحرام الذي أكلوه من الربا، مما جعلهم متميزين عن بقية الناس في تعثرهم وسقوطهم كلما همّوا بالنهوض والقيام، وهذه صورة في غاية القبح والبشاعة"⁵³. يقول سيّد قطب: "ولم يبلغ من تفضيع أمرٍ أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفضيع الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا"⁵⁴.

⁵¹. ينظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 318. بتصرف.

⁵². ينظر: ابن كثير، مرجع سابق، (708/1).

⁵³. الزحيلي وهبة، مرجع سابق، (83/3).

⁵⁴. سيّد قطب، مرجع سابق، ص 318.

وسبب عاقبتهم هذه هو اعتراضهم على أحكام الله تعالى وتشريعاته، فهم لم يقبلوا تحريم الله جلّ وعلا للربا، وزعموا - كذباً وزوراً - أنه شبيه بالبيع، مع علمهم الفرق البين بين هذا وذاك. فردّ الله تعالى عليهم وأبان عن قياسهم الفاسد بقوله الحق: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ، وَحَرَّمَ الرِّبَا) أي: أن البيع لا يكون إلا لحاجة وهو معاوضة لا غبن فيه، والربا محض استغلال لحاجة المضطر، وليس له مقابل ولا عوض.

فمن بلغه تحريم الربا، فانتهى عمّا كان يفعله، فله ما سلف أخذه من الربا في الجاهلية، وأمره بالعفو عنه أو بالحكم فيه بالعدل، وإسقاط التّبعة عنه يوم القيامة إلى الله تعالى.

وقد طرح سيّد قطب عدة حقائق تبين سبب كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت نذكر أهمها⁵⁵:

- إن أساس التصور الإسلامي يصطدم اصطداماً مباشراً بالنظام الربوي، وأنه لا إسلام - بحق - مع قيام نظام ربوي.
- النظام الربوي بلاء على الإنسانية - لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب، بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية -، وأنه أبشع نظام يمحق البشرية محقاً.
- التعامل الربوي يقضي على العلاقات الاجتماعية والتي يدعو الإسلام أن تقوم على مبدأ التعاون والتكافل.
- الإسلام نظام متكامل يلبي حاجيات الأمة جميعاً، أفراداً وجماعات في جميع المناحي، الاعتقادية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية.
- استحالة أن يُحرّم الله تعالى أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه، وفي ذلك ردٌّ على من يدعون إلى التعامل مع المؤسسات المالية الربوية بحجة الضرورة الاقتصادية، والرفاهية الاجتماعية، مع أن المُشاهد عكس ما يدّعون، فهذا التعامل صار وبالاً على الإنسانية جميعاً.

⁵⁵. ينظر: سيد قطب، مرجع سابق، ص 322، بتصرف يسير.

ما يستفاد من المثل القرآني:

- تحريم الربا ومقت الإسلام للنظام الربوي.
 - وضوح المنهج التربوي القرآني في تحريم التعامل بالربا.
 - التنفير من الربا والتبشيع لحال آكله.
 - النظام الإسلامي والنظام الربوي، نظامان متباينان متقابلان، فهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة.
 - لا إيمان بغير طاعة وانقياد لما جاء به شرعنا الحنيف.
- وكخلاصة لهذا المبحث يمكن القول: إنّ الأمثال القرآنية فيها من الفوائد التربوية ما يجعل السامعين لها ينساقون لتطبيقها دون تردد، خصوصاً إذا امتلأت قلوبهم بالإيمان، ففي الأمثال ترغيب وترهيب ومدح وذم، وقياس بين حالين ونموذجين للصالح والطالح، إضافة إلى صدق المماثلة والتشويق...كلها عناصر تدفع بالمسلم دفعاً إلى النتيجة التي يريدها الله تعالى، وهي الابتعاد عن الطالحين وملازمة الصالحين⁵⁶.

⁵⁶. ينظر: حمزاوي، المدلولات التربوية للأمثال القرآنية، ص 47.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة نجمل أهم ما انتهت إليه في النقاط الآتية:

- الأمثال المضروبة في القرآن الكريم، هي إحدى معجزات القرآن البيانية التي ساهمت في تكوين الفرد المسلم على المستويين العقلي والوجداني، ويظهر هذا من خلال تربيته على التفكير الصحيح والفهم السليم، إضافة على ترقيق قلبه وتزكية نفسه واستثارة وجدانه بالعواطف الإيمانية.
- لقد حققت الأمثال القرآنية الأهداف التي لأجلها ضُربت، والتي تتمثل في الجوانب التربوية الاعتقادية والخلقية والسلوكية، فقد استخدمت الأمثال القرآنية القياس التمثيلي، حيث يشبه الفرع بالأصل ويبين وجه الشبه بينهما، وقد ظهر ذلك - مثلاً - في [الآية:35 من سورة النور] السابقة الذكر،
- كما ساعدت الأمثال في تثبيت المؤمنين وصقل عزميتهم وتربيتهم على الصبر في المحن والشدائد، ومزجت بين الترهيب والترهيب، والمدح والذم، وضربت نماذج للعمل الصالح والعمل الطالح.
- أمثال القرآن الكريم هي أسلوبٌ تربويٌّ بامتياز، يتوجب على الدعاة والمرشدين، وجميع العاملين في حقل التربية والتعليم توظيف القيم التربوية المستنبطة من الأمثال القرآنية في بناء مجتمع مسلم وراشد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

1. القرآن الكريم.
2. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.
3. ابن قَيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الأمثال في القرآن، بيروت، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1981م.
4. -----، الأمثال في القرآن، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، ط1، طنطا، مصر، مكتبة الصحابة، 1406هـ-1986م.
5. -----، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ-1991م.
6. -----، اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، ط1، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، 1431هـ.
7. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ-1999م.
8. ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر، 1414هـ.
9. أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1381هـ.
10. الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2001م.
11. الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، بيروت، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، 1412هـ.
12. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، قام على نشره: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، طبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، (د.ت).
13. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1971م.
14. تركي راجح، أصول التربية والتعليم، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.
15. الترمذي، الحكيم محمد بن علي بن الحسن، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: السيد الجميلي، بيروت، دار ابن زيدون.
16. الجربوع، عبد الله بن عبد الرحمن، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-2003م.
17. الحازمي، خالد بن حامد، أصول التربية الإسلامية، ط1، المملكة العربية السعودية، دار عالم الكتب، 1420هـ-2000م.
18. حمزاوي يزيد، المدلولات التربوية للأمثال القرآنية. (رسالة ماجستير)، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، 2005/2006م.
19. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، (د.ت).
20. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمرو، مفاتيح الغيب، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.

21. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري شلي، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلي، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1408هـ-1988م.
22. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418هـ.
23. سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية، الكويت، عالم المعرفة، 1995م.
24. سيد قطب، في ظلال القرآن، ط32، دار الشروق، 1423هـ-2003م.
25. صحبة عطا أبو حطب، التربية الإسلامية ودورها في التنمية، مجلة الشهاب، الوادي، العدد التاسع، ديسمبر، 2017م.
26. طاحون، أحمد بن محمد، أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، إدارة مراقبة الكتب وطبعات المصاحف، ط1، الرياض، 1411هـ-1990م.
27. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، 1420هـ-2000م.
28. الطهطاوي، علي أحمد عبد العال، عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1425هـ-2004م.
29. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ.
30. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1407هـ-1987م.
31. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاشي، وآخرون، ط1، مصر، دار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت).
32. الفيض، محمد جابر، الأمثال في القرآن الكريم، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 1433هـ-2012م.
33. القطان، مناع ابن خليل، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1421هـ-2000م.
34. الماوردي، أبو الحسن علي ابن محمد، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، (د.ط)، 1986م.
35. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم، الهيئة المصرية للكتاب، 1990م.
36. محمود بن الشريف، الأمثال في القرآن، ط2، الرياض، دار عكاظ، (د.ت).
37. المقبل، محمد بن مقبل، الأولاد وتربيتهم في ضوء الإسلام، ط3، الكويت، مطبعة نجد العالمية، 1416هـ.
38. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، ط2، دمشق، دار القلم، 1412هـ-1992م.
39. -----، الحضارة الإسلامية، أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها وملحات من تأثيرها في سائر الأمم، ط1، دمشق، دار القلم، 1418هـ-1998م.
40. النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط25، دار الفكر، 1428هـ-2007م.